اللغة في وسائل الاتصال العربي بين ثوابت الهوية ومقتضيات الانفتاح

الأستاذ الدكتور محمد الفران
مدير معهد الدراسات والأبحاث للتعريب
المغرب

الأربعاء 18 تشرين الثاني 2015م

1- اللغة والتواصل

يروى عن "كونفوشيوس" أنه سئل مرة عما سيصنع بشؤون البلاد إن أوكلت إليه، فأجاب: "إصلاح اللغة بدون تردد"، ولما سئل: "لماذا؟" رد قائلاً: "إذا لم تكن اللغة سليمة، فما سيقال سيكون مخالفاً للمقصود، وسيترتب عن ذلك أن ما يستحق الإنجاز لن ينجز، وإذا لم ينجز ما يستحق الإنجاز، فإن الأخلاق والفنون سيحل بهما الانحطاط، وإذا ما انحطت الأخلاق والفنون فستنحرف العدالة، وإذا ما انحرفت العدالة، فسوف يقف الناس مضطربين ضعافاً. وعلى هذا، يجب التخلي عن الاعتباط في القول، وهذا أمر يتفوق في أهميته على كل أمر".(١)

وإذا كان أمر اللغة هو الذي ذهب إليه "كونفوشيوس" فيلسوف الصين الذي عاش ما بين 551-479 ق.م، فإن "جوليا كريستيفا" تنظر إلى اللغة على نحو ثان يكشف جانباً آخر من أهميتها. اللغة عندها ممارسة يومية قبل كل شيء. وهي موضوع لعلم، ومادة تتكون فيها الذات ومعرفتها، وهي إلى ذلك وظيفة اجتماعية تتجلى في ممارسة التواصل العادي (المحادثة) والخطاب سياسياً ونظرياً وعلمياً وأدبياً من شعر ونثر، وكذلك في (الفولكلور) الشفاهي، وإذا ما أغفلنا في التواصل الاعتيادي قوانين اللغة، فإن الكاتب أو الخطيب يدركها ضمناً ويواجه باستمرار مادتها.(٢)

---

(١) انظر الاستشهاد بمقولة كونفوشيوس في:

Rivers, W.: 1971, the adversaries, Politics and the Press. Boston: beacon, P.1.

(٢) جوليا كريستيفا: "**الممارسة اللغوية**"، ترجمة محمد بولعيش، ***بيت الحكمة***، العدد **5**، السنة 2، إبريل 1987، ص184-152.

ومتابعة لوجهات النظر في أهمية اللغة، لا يتصور "بارت" أنظمة شاملة للعلاقات خارج نطاق اللغة، وعلى الرغم من انتشار الصور في أيامنا هذه فلا يمكن تصور نظام مصور للأشياء مستقل عن اللغة بمدلولاتها، ولهذا فهو يراها مؤسسة اجتماعية، ونظاماً من القيم، وارتباطاً جمعياً لا يسع الفرد إلا قبوله إذا ما رغب في الاتصال(١).

وقد انتهى الأمر بـ"إدوارد سابير" إلى القول بصعوبة تحديد وظائف اللغة بسبب ارتباطها العميق بالسلوك الإنساني حتى لا يكاد يوجد جانب من هذا السلوك لا تلعب فيه دوراً، وتذهب نظرية "سابير وورف" إلى وضع الناس تحت "رحمة" لغتهم، إنها دليلهم إلى الحقيقة الاجتماعية، ولا يمكن لأحد إدراك هذه الحقيقة بدونها، وما من لغة تماثل أخرى في التعبير عنها. إننا في استماعنا ورؤيتنا وتجاربنا نصدر عن عادات لغوية لمجتمعنا ترسم مسبقاً اختياراتنا للتفسير، لا تخبر اللغة عن التجربة ولكنها تحددها. "والنظام اللغوي لا يشكل أداة للتعبير فحسب، بل إنه يشكل الأفكار وهو مبرمج ودليل فعالية الفرد العقلية وتحليل انطباعاته"(٢).

أما بالنسبة للفكر العربي القديم فيرى أن الإنسان قد جبل على مشاركة بني جنسه والاجتماع بهم لاسترفاد المعونة، ومن ثم لزم أن تتوافر لديه آلة يتواصل بها مع الشريك لإخباره واستخباره عن أغراضه ومقاصده. ولم يجد سوى اللغة التي احتلت من بين القنوات كلها المكانة المثلى، لكونها من أشد أنماط الاتصال اكتمالاً. إن اللغة تمد الإنسان بما تعجز عنه الوسائل الأخرى، نظراً لقيامها على

---

(1) Barthes, R.: 1967, Elements of Semiology. Trans. A. Laves and C. Smith. N. J: NILL, PP.10-14.

(2) المرجع السابق، ص122.

الصوت "ووفقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معاً ليدل بها على ما في النفس من أثر" والصوت هو "أخلق ما يصلح لذلك لأنه ينشعب إلى حروف، تتركب منها تراكيب كثيرة من غير مؤونة تلحق البدن"[١]. فالصوت أخلق ما يصلح لتبليغ الأغراض واستبلاغها لأنه يتماشى مع عدة أمور، منها كونه فعلاً يستطيع الإنسان القيام به، لأن الخالق أمده "بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معاً ليدل بها على ما في النفس من أثر" ولأنه يمكن أن يؤلف ويبدع به من التراكيب ما يطابق الأغراض الإنسانية غير المتناهية، ثم إن الصوت بعد كل ذلك يستجيب لمبدأ الخفة الذي يقتضيه ما جبل عليه الإنسان من النزوع والميل نحو السهولة واليسر "فكان مما لا يزدحم فتكون فيه مع خفته فائدة وجود الإعلام به، مع فائدة انمحائه إذ كان مستغنياً عن الدلالة بعد زوال الحاجة عنه"[٢].

2- العربية ووسائل الاتصال

لقد انبرى العديد من المهتمين باللغة والثقافة على وجه العموم للتنبيه على تراجع اللغة في المشهد الإعلامي العربي، فَعَلت أصوات العديد من الكتاب والمهتمين بالشأن اللغوي والإعلامي في الوطن العربي، تدعو لحماية قوة اللغة

---

(١) ابن سينا، الحسين، **الشفا (العبارة)**، [تحقيق محمد الخضيري]، دار الكتاب العربي- القاهرة، 1394، ص2.

(٢) المصدر نفسه، ص 2. وتجدر الإشارة في هذا الصدد أن جهاز النطق الذي تخرج منه هذه الأصوات، خلقه الله سبحانه ليقوم بوظائف أساسية أخرى، لا علاقة لها بعملية التصويت. إن الرئتين مثلاً خلقتا لتكرير الهواء وإرساله للقلب، واللسان خلق لحاسة الذوق، والأسنان خلقت للمضغ والقضم لتسهيل عملية الهضم. أما فعل الكلام فعملية إضافية اضطلعت بها هذه الأعضاء نفسها إذ "هيئت للقيام بعملية الكلام بمقدار ما شكلت للقيام بعملية التنفس وتناول الغذاء. واللسان الإنساني من المرونة بمقدار يزيد بكثير عما تتطلبه عملية ابتلاع الطعام وسبب هذا أن هذه المرونة الزائدة، لازمة لإنتاج مختلف الأصوات اللغوية"، عبدالرحمن أيوب، **الكلام إنتاجه وتحليله**، جامعة الكويت 1984، ص27-28.

وسلامة تعابيرها ومتانة أساليبها، نظراً لخطورة ما يحظى به الإعلام من تأثير في النمو اللغوي للناشئة وفي الملكة والرصيد اللغويين سواء تعلق الأمر بلغات الهوية أو بلغات الانفتاح (الإنجليزية، الفرنسية، الإسبانية) والتي تمثل نافذة على العالم المعاصر. وفي هذا الصدد قام أكاديميون وإعلاميون ومثقفون بإنجاز بحوث ومقالات رامت ملامسة سؤال اللغة في علاقتها بالإعلام بمختلف أنواعه.

2-1 عربية الإعلام بين القديم والحديث

يكاد يجمع كثير من الدارسين على أن ظهور لغة عربية معاصرة بالشكل الذي نلمسه اليوم، إنما يرجع الفضل فيه إلى الصحافة. فالصحافة هي التي حققت للغة العربية "كل ما كان يأمل فيه المجددون من رجال اللغة وكل ما نادى به الغيورون على هذه اللغة من وجوب تبسيطها بحيث يفهمها أكبر عدد من القراء، ومن وجوب تزويدها بالحيوية الكافية حتى لا يضيق بها أحد القراء، بل ومن وجوب تطويرها حتى تتسع للتعبير عن كل جديد أو مستحدث في الأدب والعلم والفن جميعاً" [1]. بل إنها خلقت حدثاً لغوياً ثالثاً، بعد الحدث القرآني وبعد النثر الفني[2].

وهذا التطور في حقيقة الأمر، إنما نتج عن تطور الصحافة نفسها وتطور لغتها. فقد غدت الصحافة حرفة من الحرف كالطب والهندسة والتدريس وأصبح لها قوانينها، ووسائلها التقنية والبشرية، وفنونها التي تختص بها (أي، فن التحرير وفن الإخراج وفن إدارة الصحف) وحلت الصحافة اليومية محل الصحافة الدورية، وهذا انعكس على اللغة التي تستعملها، إذ كانت الصحف المصرية، قديماً، "تحرر الأخبار بطريقة عجيبة حرصت فيها على إيراد الخبر مورد السجع والجناس

(1) عبدالعزيز شرف، ص183.

(2) أديب مروة، (1961).

والطباق، ثم بالتدريج أخذت الصحف تتخلص من هذا الشكل العتيق من أشكال التحرير، ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد حتى وجدنا أن فن تحرير الخبر أصبح له أصول وله قواعد وله قوالب خاصة وصيغ معينة"[١].

وقد لا نبالغ إن قلنا إن تطور الصحافة وتطور لغتها إنما نتج بدوره عن تطور أو تغير طرأ على القارئ العربي. فبعد أن كانت طبقة القراء محصورة تقريباً في طبقة الموظفين، أصبح القراء في عصرنا هذا طبقات متباينة، ينبغي إرضاؤها. وإرضاء القارئ وكسبه زبوناً كان له أثره الملموس في الصحيفة، حيث أدخلت عليها تعديلات كثيرة سواء فيما يخص عدد الصفحات أومضامينها إذ أصبحت هناك صفحة للآداب، وأخرى للعلوم، وثالثة للفنون، ورابعة للمرأة، وخامسة للشباب، بالإضافة إلى صفحات الأخبار والإشهار. وكذلك فيما يخص لغتها إذ أصبح على المحرر أن يجعل نصب عينيه مستوى المعرفة التي للقارئ المفترض للصحيفة.

إن هناك علاقة تفاعل وتأثر بين الصحافة واللغة والقارئ. وهذا التأثير المتبادل بين هذه العناصر الثلاثة، على الأقل، أدى إلى تحولات كبيرة، أفرزت واقعاً لغوياً له ميزاته الخاصة به[٢].

---

(١) عبداللطيف حمزة، ص532-533.

(٢) يرى هانز فير صاحب معجم اللغة العربية المعاصرة أن تأثير الصحافة في العربية المعاصرة كبير، ويمتد إلى كل أقطار العالم العربي. وفي ذلك يقول: "ظهر في العربية المعاصرة أسلوب صحفي متميز متطور يستخدم في كتابة التقارير الصحفية والأخبار ومناقشة الموضوعات السياسية العامة والمحلية من خلال الراديو والصحف. هذا الأسلوب ينم عن تأثيرات أجنبية وله شكل موحد في كل أنحاء العالم العربي. لقد وصل هذا الأسلوب إلى قطاعات كبيرة من السكان، وهو يحدد لهم تقريباً المعيار الأسلوبي الوحيد"، عن محمد حسن عبدالعزيز، ص16.

إن هذا الواقع اللغوي الذي أفرزته لغة الصحافة الحديثة يمثل عند بعض الدارسين فصاحة من فصاحات اللغة العربية التي لها مميزاتها الخاصة وخصائصها المختلفة عن خصائص الفصاحات السابقة عليها زمنياً. وبذلك تمثل الصحافة العربية، وثيقة في تاريخ اللغة العربية وفصاحتها، كما تمثل قطيعة نسبية مع المراحل السابقة عليها. وقد أثار هذا الواقع اللغوي عدة ردود فعل، وانقسم الدارسون إزاءه بين قابلين له مؤيدين من اعتمده وسار على نهجه، ورافضين له داعين إلى الحد من ذيوعه وانتشاره. فهذا أديب مروة يصرح بأن "الأسلوب السهل المشرف الذي وصلنا إليه اليوم في الكتابة بلغتنا العربية لا يعود الفضل فيه إلى معلمي اللغة في المدارس والكليات، ولا يعود الفضل فيه إلى الكتاب والأدباء القدامى، بل الفضل الأول في هذا الأسلوب يعود إلى صحافة اليوم"[1]. فالصحافة هي التي أمدتنا بألفاظ وأساليب وتراكيب لم يعهدها العربي من قبل. أقرت المجامع اللغوية الكثير منها. ويتعجب عبداللطيف حمزة، من جهة أخرى، من عدم انتباه الداعين إلى اعتماد اللهجات العامية محل العربية إلى أن الصحافة تقوم لهم بهذا الدور من دون أن تثير حولها أي ضجة تعوقها عن تحقيق مراميها. يقول:

"والعجب كل العجب أن نرى بعض المجددين في الأدب يطالبون ملحين بين الحين والحين باصطناع اللهجة العامية في الكتابة تيسيراً على القراء وإشراكاً لأكبر عدد منهم في التعليم والثقافة. وما درى هؤلاء المجددون وهم يتعبون أنفسهم في هذا السبيل أن الصحافة الشعبية تقوم لهم بهذا العمل الجليل، وتتقدم كل يوم خطوة جديدة نحو هذه الغاية، ولكن من غير أن تثير عليها ضجة من جانب المحافظين المتزمتين الذين يحمون اللغة الفصيحة من أن يتسرب إليها بعض الألفاظ والجمل

(1) أديب مروة، (1961)، ص111.

التي ليست منها في الحقيقة" [١]. وعلى العموم فإن هؤلاء المؤيدين يستندون إلى فكرة مركزية مفادها أن الصحافة هي تعبير عن المجتمع وهي موجهة إليه، وبالتالي فهي التي يجب اعتمادها[٢].

أما الرافضون لهذا الواقع اللغوي فقد رأوا فيه انحرافاً وتشويهاً للغة العربية وبعداً عن التراكيب العربية الأصيلة. ولعل أبرز هؤلاء هو إبراهيم اليازجي الذي رغم إقراره بدور الصحافة وريادتها فإنه يرى أنها شوهت وجه اللغة ونشرت الوهم والخطأ اللغوي[٣].

ومن الدارسين من وقف موقفاً معتدلاً إذ كان صارماً بخصوص احترام اللغة نحواً وصرفاً ولكنه مع ذلك أجاز عدداً من التراكيب والأساليب التي اعتادتها الصحافة[٤].

---

(١) عبداللطيف حمزة، ص287. ويقول إسكندر المعلوف في نفس الاتجاه: "وما أحرى بأهل بلادنا أن ينشطوا عقولهم طالبين التحرر من رق لغة صعبة المراس، قد استغرقت أوقاتهم وقوى عقولهم الثمينة، وهي مع ذلك لا توليهم نفسها، بل أصبحت ثقلاً عليهم يؤخرهم عن الحركة في مضمار التمدن وحاجزاً يصدهم عن النجاح، ولي أمل بأن أرى الجرائد العربية قد غيرت لغتها، وبالأخص جريدة الهلال الغراء التي هي في مقدمتها. وهذا أعده أعظم خطوة نحو النجاح، وهو غاية أملي ومضمون رجائي"، عن محمد محمد حسين، 1968، ج2، ص345.

(٢) في هذا الصدد يرى عبداللطيف حمزة أن "المعين الأول الذي تنتقي منه المعجم اللغوي للصحافة في كل أمة من الأمم هو الشعب ... على أن المسألة ليست مسألة الألفاظ المستحدثة فقط، وإنما هي مسألة التراكيب التي يألفها الشعب نفسه كذلك ... ومعنى ذلك أن الشعب يعمل ذوقه في الألفاظ من جهة وفي التراكيب من جهة ثانية ... [و] لا شك أنها الطبقة المثقفة التي يقدر أفرادها دائماً على نحت الألفاظ الجديدة. والذي لا شك فيه أيضاً أن على محرري الصحف في كل بلد من بلاد العالم المتحضر يقع العبء الأكبر في القيام بهذه المهمة". ن.م. ص286.

(3) انظر اليازجي.

(4) من ضمن هؤلاء الشيخ إبراهيم المنذر. انظر محمد دوبلاي، ص60 وما بعدها.

2-2 ضوابط النسق اللغوي ومقتضيات الانفتاح

لقد حاولت مجموعة من الأعمال اقتراح بعض الوسائل والآليات للحفاظ على سلامة اللغات، ومواءمة اللغة العربية للمعطى الإعلامي الجديد، وجعل وسائل الإعلام الحديثة تبدع وتبتدع لغتها دون إخلال أو خرق لضوابط اللغة وقواعدها . من هذا المنطلق سنحاول رصد الإشكال بإعادة صياغة بعض الملاحظات المنهجية التي يمكن أن تشكل إطاراً لتوضيح معالم ما نحن بصدد الحديث عنه.

سأركز أولاً على الجانب المتعلق بمساهمة لغة الصحافة بما يمكن تسميته بالتطور اللغوي. وسأفحص أساساً نظرة "النخبة العالمة" للانزياح النحوي في لغة الصحافة من خلال ثلاثة نماذج متباعدة زمنياً ومتباينة بالنظر إلى الخلفية الفكرية والثقافية لأصحابها.

إن لغة الصحافة نمط من أنماط العربية الحديثة وهو زعم يؤكده كثير من الدارسين نخص منهم بالذكر هانز فير (Hanz Wehr) الذي يقول في مقدمة معجمه -الذي يحمل عنوان: معجم العربية المكتوبة المعاصرة- [1]: ***تظهر في العربية المعاصرة أسلوب صحفي متميز متطور، يستخدم في كتابة التقارير الصحفية والأخبار ومناقشة الموضوعات السياسية العامة والمحلية من خلال الراديو والصحف. هذا الأسلوب ينم عن تأثيرات أجنبية وله شكل موحد في كل أنحاء العالم العربي. لقد وصل هذا الأسلوب إلى قطاعات كبيرة من السكان وهو يحدد لهم تقريباً المعيار الأسلوبي الوحيد.*** " يستفاد من هذا الاستشهاد الإقرار

(١) Dictionary of Modern Written Arabic هو قاموس عربي-إنكليزي وضعه هانز فير بالألمانية وترجمه إلى الإنكليزية ونقحه ج. ملتون كوان. نشره لأول مرة، عام 1961. وانظر أيضاً في الموضوع نفسه: Modern Standart Arabic, Karin C. Ryding, Cambridge, 2005.

بوجود مستوى للاستعمال يسمى العربية الحديثة، وتعتبر لغة الصحافة تجلّ من تجلياته. يتعين إذن أن تتجه الدراسات اللسانية نحو تحديد الخصائص النحوية والأسلوبية لهذا الكيان لتأسيس مرجعية معيارية حديثة نحتكم إليها في تقويم المُنتج اللغوي العربي المعاصر.

يبدو واضحاً للعِيان أن المناظرات اللغوية التي احتدمت حول الأغلاط اللغوية في جميع العصور شكلت إطاراً للصراع بين موقفين:

الأول: موقف يصدر عن تصور يختزل العربية في النحو البصري ويعتبرها لغة خارج التاريخ.

الثاني: ينحو منحى ترك مسافة بين اللغة والنحو، لأن الأولى ملكة طبيعية في حين أن الثاني صناعة، مما يفيد، ضمنياً، أن النحو اجتهاد (نظر عقلي) يحتمل الصواب والخطأ وهو بهذا المعنى مشروع مفتوح كما أن المعطى اللغوي الخام لائحة غير متناهية.

يُحدّد هذا الاستقطاب نظرة كل فريق إلى مفهوم النحوية وإلى المُولّد بمظاهره المختلفة (اللفظية والأسلوبية) في لغة الصحافة.

يكتب محمد مسعود، أحد علماء العربية في أوائل القرن الماضي، رداً على شيخ العروبة أحمد زكي باشا، نُشر في صحيفة البلاغ سنة 1932[1]. تبرز أهمية هذا الرد في كونه يقدم نموذجاً للأسلوب الذي تطرح به قضايا الشأن اللغوي في الصحف السيارة في النصف الأول من القرن الماضي.

(١) المعارك الأدبية، أنور الجندي، مطبعة الرسالة، القاهرة، د.ت.

يقول محمد مسعود : ***نعى شيخ العروبة علينا*** [والمقصود زكي باشا] ***في النهر الأول من مقاله استعمالنا كلمة آشاغيل طرآنية حيث كان المستساغ استعمال كلمتي مشاغل طارئة لا لأن تينك الكلمتين خاطئتان لغة فإنه بذاته يعترف بصوابهما وإنما لأن ذوقه يمجها على خلاف كلمة مشاغل الظريفة الخفيفة التي تفيد معنى مواضع العمل والشغل ولا تؤدي أبداً معنى ما يشغل بالك من أمر وهو المراد بالأشاغيل جمع أشغولة. فشيخ العروبة يضحى الصواب على مذبح الخطأ لأنه يُحَكّم ذوقه في التصويب والتخطئة ويجعل دُبُر أذنه وتحت نعله التحقيق اللغوي الذي يرد حقيقة المعاني إلى نصابها من الألفاظ***".

يستدعي هذا المقتطف الطريف ملاحظتين:

أولاهما أنه يمثل لغة وأسلوباً لعربية لم يعد أحد من صحفيينا ومثقفينا يكتب بها بالرغم من انتمائها لحقبة زمنية ليست بعيدة. لم نعد نستعمل في عربية اليوم فعل **نعى** بمعنى **عاب** إذ يندر أن نصادف عبارة نعى على فلان الشيء بمعنى يعيبه عليه ويُشهر به. أضف إلى هذا، أن المثقف اليوم لا يستعمل عبارات مسكوكة مثل يجعل دبر أذنه وتحت نعله، إلا إذا كان مقصود القائل إبهار سامعيه بثقافته الأدبية أو إشهار سعة اطلاعه بكلام العرب.

ثانيهما إن النزاع حول مشاغل وآشاغيل الذي دار في ثلاثينيات القرن الماضي هو عينه النقاش العمومي الدائر اليوم حول أخطاء لغة الصحافة وما هي بأخطاء الصحافة بل إن أردنا الدقة قلنا مشكلات التحليل النحوي للعربية الحديثة. صاحب أشاغيل يدافع بالقياس ويرى أن مشاغل لا وجه قياسي لها، فهي صيغة صرفية تدل على المكان. لكن موقف أحمد زكي باشا والذي انتصر له الشيوع واطراد الاستعمال مبني على الحدس وهو بُعد يجب ألا نغفل أهميته في التحليل. فزكي باشا يصدر عن موقف يرجح الاستعمال في هذه الحالة على القياس

خصوصاً في الجانب المعجمي للغة حيث لا يكاد الاطراد يستقيم حتى يعبث به الاستعمال، لأن دلالة الصيغ عرضة للتحولات غير المتوقعة بحكم دينامية المعجم وخروج الصيغ الصرفية عن نماذجها الأصلية في مقابل استقرار وثبات التركيب. فلو سايرنا القياس في باب المعجم فإن هذا سيفضي إلى ظهور مخلوقات لغوية غريبة من قبيل أشاغيل وطبعي (بدل طبيعي) ولقلنا إن القياس يلزم أن نقول في مفرد أوامر آمرة والحال أننا نعتبر أن أوامر جمع للفظ أمر بمعنى توجيه الشخص للإتيان بفعل. أضف إلى هذا أن القياس، النواة الصلبة، في احتجاج محمد مسعود يعضد مشاغل، فخلافاً لما ذهب إليه هذا الأخير، فإن لفظ مشاغل مقيس على مآرب، وأن لا شيء يمنع اعتبار مشاغل جمع مشغل على أساس احتمال صيغة مَفعَل لمعنى المصدر كما في مأرَب التي تفيد الأرَب بمعنى الحاجة. ونجد نظير هذا في مشفى التي تفيد المكان وتحمل على الحدث أي الشفاء كما في قولنا: "مشفى المريض بالأيدز صعب في الظرف الراهن".

شبيه بهذا ما أثير في المغرب في السبعينيات بخصوص مسألة السوق المشتركة بكسر الراء وفتحها. والتي يأبى القياس أن تكون مفتوحة في نظر الأستاذين الجليلين المرحومين أحمد الأخضر غزال ومحمد الفاسي. فالكل يوافق الأستاذ محمد الفاسي على أنّ اسم الفاعل لفعل اشترك هو مشترِك بكسر الراء ولا يوجد من يقول غير ذلك، والقياس يؤيده في تخطئة من يفتح وَاوَ مُزْدَوِج وَزَايَ مُمْتَزِجَة ونون مُمْتَنِع. والذين تصدوا للرد على الأستاذ الأخضر في كسر راء المشترَكَة في عبارة السوق المشتَرَكة لا يقولون بخلاف ذلك. المسألة ليست في تخطئة من وضع اسم المفعول محل اسم الفاعل بل في الجواب عن السؤال التالي بأي نحو نحدد ماهية اللغة العربية المعاصرة؟ بمعنى آخر، لا تكمن المشكلة في معطيات من قبيل السوق المُشترَكة، والسمات

المشترَكةَ بل في أدوات تحليل المعطى اللساني التي غالباً ما تشكل عائقاً يحول دون تأسيس نظرة جديدة للمعطى. ذلك أن القضية ليست في خاصية التعدية واللزوم وما يترتب عنهما في مستوى الاشتقاق الصرفي لاسم الفاعل واسم المفعول؛ بل هي في معرفة الخصائص الدلالية والتركيبية لهذا الصنف من البنى التي تكثر في العربية الحديثة.

لقد أتاح تجديد النظر في معطيات اللغة القول إن النحو ليس قياساً بالمعنى المتداول، وأضحى بالإمكان تصوره نسقاً يبيح خرق قيود الاشتقاق الصرفي –التي تشترط ربط اسم المفعول بالفعل المتعدي لا غير– لفائدة إرضاء شروط أخرى قد تكون دلالية أو تركيبية ويعود أمر تحديدها إلى دراسات لسانية تملك العدة النظرية الكافية لاستجلاء الأمر.. ففي القرآن الكريم نعثر على ما يعضد فرضية خرق قواعد الاشتقاق الصرفي. لقد ورد في الذكر الحكيم قوله تعالى: "اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤهم جزاء موفوراً" (سورة الإسراء). ففي الآية اسم مفعول مربوط معجمياً بفعل لازم وهذا مخالف للقياس ، قال أهل اللغة موفور اً بمعنى وافراً. لأن الأصل في وَفَر اللزوم (وفَر الكلأُ بمعنى كَثر). أضف إلى هذا أن اسم المفعول يأتي بمعنى اسم الفاعل كما في قولنا "فاق المنتوج التوقعات" وقد ورد نظير هذا في القرآن الكريم. يقول تعالى في محكم كتابه: "إذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون حجاباً مستوراً" (الإسراء). قال أهل اللغة مستوراً بمعنى ساتراً. والعكس أيضاً على حد ما نجد عن النحاة أثناء حديثهم عن ورود اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول في بيت حسان بن ثابت عند هجائه للزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

أي المطعم المكسو.

الحالة الثالثة نموذج يمثل لموقف محمد حسن عبدالعزيز من الهنات اللغوية في لغة الصحافة في كتابه لغة الصحافة المعاصرة. فهذا المؤلف رغم قبوله بالتطور اللغوي وإشادته بما للغة الصحافة من دور حاسم في تطوير العربية في سبيل تمكينها من مواكبة نبض الحياة، يظل ملتزماً قواعد النحو المدرسي في تصوره لما هو نحوي في لغة الصحافة. فالكاتب يصِم الكثير من العبارات الواردة في المتن الصحافي باللحن. من ذلك مثلاً تخطئته لعبارات من قبيل رأيته أكثر من مرة وجاءني أكثر من واحد بحجة عدم مراعاتها لضوابط بنية التفضيل " *لأن المفضل عليه لا بد أن يشارك المفضل في ذلك المعنى فقولنا بكر أشرف من خالد يتضمن إثبات الشرف لخالد مع زيادة بكر عليه فيه. ويقترح بعض اللغويين أن يقال بدلاً من ذلك: رأيته غير مرة وجاءني غير واحد. وقد ظهر هذا التعبير في اللغة العربية تر جمة للتعبير الإنجليزي (أكثر من مرة more than once أكثر من واحد more than one*"[1]

لمناقشة هذا الحكم لا بد من التذكير بأن اللغات تتطور في الزمن بفعل الاتصال باللغات وبعوالم جديدة تحتوي مبتكرات لا تغير معالم الحياة اليومية فقط بل تغير التصورات الذهنية مما يستلزم استثمار الطاقات الإبداعية للغة لاستيعاب الجديد من خلال ربطه بكلمات وجمل لغوية وللتعبير عنه في ذات الوقت. هذا من جهة ومن جهة أخرى من المفيد أن نوضح بخصوص مسألة استعمال

(١) لغة الصحافة المعاصرة، ص59.

صيغة أفعل للتفضيل أن اللغة العربية تتفرد من بين أخواتها السامية بإسناد دلالة التفضيل لصيغة أفعل، فهذه الصيغة مشتركة لفظاً بين الساميات مخصوصة بالتفضيل في العربية. وتخبرنا الدراسات السامية أن العربية طورت هذه الصيغة لتصبح دالة على التعجب: ما أفْعَله فضلاً عن صيغة أفعل به. (١)

موضع الشاهد في هذا أن اللغة العربية تملك قابلية توسيع الدلالة الصناعية لصيغها دون أن يترتب عن ذلك أي خلل يحول دون التأويل السليم للجمل المتضمنة لهذه الصيغ فدلالة التعجب طارئة تاريخياً على صيغة أفعل. إن ما حصل في بنية رأيته أكثر من مرة عبارة عن ضرب من التوسيع الدلالي أتاح لصيغة التفضيل "أفعَل-من" تأدية وظيفة السور أو المكمم (quantifieur) وهو معنى يوجد أيضاً في بنية التفضيل مع فارق أن التفضيل تكميم لخاصية في سياق المفاضلة أو المقارنة في حين أننا في بنية أكثر من مرة بإزاء تكميم مجرد من المفاضلة.

والخلاصة أن نسق العربية له من الغنى ما يكفي لامتصاص بعض الأساليب الوافدة وليس كلها، دون أن يترتب عن ذلك أي خلل في البنية النحوية التي هي بالأساس بنية عاملية. ونظير هذا حالة "أي" التي أصبحت تسلك في العربية سلوكاً غير مألوف في عربية النحاة فأصبحت تدل على المعنى المستفاد في الفرنسية من اللفظين aucunو rien و any في اللغة الإنجليزية. لقد تنبه الأستاذ العقاد

(١) انظر مزيداً من التفاصيل في هوية الفصحى بحث في التصنيف والخصائص لرمزي منير بعلبكي، مجلة **تبين**، العدد 1، 2012.

بفضل ما أوتي من بصيرة نافذة وثقافة واسعة إلى أن الابتكار في اللغة شيء مرغوب فيه، فلنستمع إليه يقول: *أضاف الصحفيون إلى اللغة العربية تلك العبارة لتدل على المعنى الذي تدل عليه كلمة any في اللغة الإنجليزية دون أن يُخلّوا بالمعنى الأصلي لكلمة "أيّ" ولو لم يبتكروا هذا التعبير لبقي مقابل كلمة any ناقصاً في العربية وليس من واجبنا أن نترك لغتنا عاجزة عن الدلالة عما تدل عليه اللغات الحية الأخرى"* .(١)

لو سحبنا هذا الكلام على حالة أكثر من لما رأينا في عبارة قرأت الرواية أكثر من مرة، خطراً على العربية كما يذهب إلى ذلك محمد حسن عبدالعزيز الذي يرى أن شيوع مثل هذه التعابير "ينطوي على خطر كبير يتهدد الأسلوب العربي في التركيب *اللغوي للجملة"*. (٢)

يتبين مما تقدم أن لغة الصحافة ليست كياناً منفصلاً عن اللغة العربية المعاصرة أو الحديثة وأن مشاكلها، التي تبرز في جميع مستويات الاستعمال الإعلامي، يجب أن تعالج ضمن رؤية شمولية لمشكلة هوية العربية المعاصرة في علاقتها الحميمة باللهجات الفاعلة في الخلفية العميقة للمتكلم، وفي تجاذباتها العنيفة تارة والهادئة تارة أخرى مع اللغات المهيمنة حضارياً والمستحوذة على السوق العالمية للتبادل اللغوي.

وسأخصص الفقرات الآتيات لبعض هذه التجاذبات التي ستلقي الأضواء الكاشفة على بعض الجوانب الأخرى من المشكل، وذلك حتى نميز بين ما يقتضيه الانفتاح اللغوي على حد ما رأيناه فيما سبق، وما تتطلبه ضوابط النسق اللغوي للعربية من

---

(١) النص مأخوذ من لغة الصحافة المعاصرة.

(٢) النص مأخوذ من لغة الصحافة المعاصرة، ص60.

حيث خصوصيتها الناتجة عن تاريخها وتجاربها على مر العصور مثلها في ذلك مثل باقي اللغات. لا مناص من المؤتلف والمختلف بينها.

إن التطور اللغوي أو تنمية اللغة العربية والعمل على تيسيرها لتصبح متداولة وسهلة يفهمها الجميع لا يعني أبداً الخروج على النسق اللغوي للغة العربية. أو العمل على استبدال لغة مترجمة أو عامية بها. بل إن ذلك يوجب العمل على تمكينها في محيطها وتطويرها من الداخل لجعلها منفتحة على كل جديد.

2-3 الازدواجية والثنائية وضوابط النسق

غير خاف أن اللغات على وجه العموم تعرف وضعيات ثنائية وازدواجية مختلفة، وتكون لهما آثار في اللغة واستعمالها في وسائل الإعلام. العربية تعرف ثنائية العربية الفصحى والدارجة والعربية الوسطى كما تعرف ازدواجية مع اللغة الفرنسية في شمال إفريقيا واللغة الإنجليزية في الشرق العربي.

إن ما يميز كل لغة عن غيرها هو خيالها. فما يميز العربية الفصحى التي كتب بها أبو حيان التوحيدي والزمخشري هو خلوها من الخيال الأجنبي، والتزامها التركيب الجملي المنطقي لسنن العربية. والخيال الأجنبي هو الصور البلاغية المنقولة من لغات أخرى. فالصور البلاغية التي نجدها في عربية الزمخشري وأبي حيان وابن المقفع والعماد الأصفهاني ولسان الدين بن الخطيب والمسعودي والطبري وغيرهم محلية أصيلة منحوتة من جهدهم الخاص أو موروثة من الكتابة العربية السابقة. فما الفرق بين الألفاظ في عربية هؤلاء الكتاب وعربية أي إعلامي معاصر يشتغل بالصحافة المرئية أو المسموعة. الاختلاف يكمن في الانزياحات البلاغية المتمثلة في الربط بين الألفاظ من الناحية الدلالية.

وهذه الانزياحات أو الانحرافات –كما يسميها البعض– لعربية الصحافة ترجع إلى عاملين:

الأول اللغة الأجنبية وتأثيرها في الخيال الكتابي الإنشائي والمتعلقة أساساً بمشاكل الازدواجية اللغوية وما يترتب عن ذلك من استثقال دلالي والتباس منطقي.

والثاني العربية الدارجة وعلاقتها بالفصحى، وتدخل إشكالاتها في إطار الظواهر اللغوية المتعلقة بالثنائية.

2-3-1 الازدواجية اللغوية وعربية الإعلام

- **عيوب الانزياح البلاغي أو الاستثقال الدلالي**

مثال ذلك العبارة الصحفية التالية المنقولة من خبر صحفي:

"**بدأ الزوج استصدار وعوده الكاذبة بقرب تسليم صاحبته الورقة المزعومة**"؟

إن الكاتب العربي القح لا يمكن أن يكتب مثل هذه العبارة، لأن التزويج بين البدء والاستصدار لم يكن من عادات العربية الأولى. أضف إلى ذلك أن العربية الأنيقة الفصحى قد تصف الوعد بالمكذوب لا بالكاذب. لكن العربية الصحفية المعاصرة تلجأ إلى الاستعارة المكنية هنا، فتجعل للوعد شخصية الواعد.

علاوة على ذلك فإننا لا نعلم إلا بالاستنباط مصدر الاستصدار، ثم إن التسليم فيه ضمير مستتر كانت تتجنبه العربية الفصحى القديمة، فكانت تجوز أن تقول:

"**تسليمه صاحبته**"

بقيت كلمة "المزعومة" التي لا يصح أن تكون نعتاً لجسم أو جثة، وإنما يصح أن تكون نعتاً لمعنى كالأمر، فالأمر مزعوم فيقال "زعم أمراً"، ولا يقال "زعم كلمة أو رجلاً"(١).

خذ مثلاً مركب "تحت الضغط" في عبارات مثل "تحت ضغط الظروف الاقتصادية"، وفي عبارات يتأخر فيها الحال عن عامله وبعد أن يكون انقطع عن صاحب الحال والعامل. وذلك مثل ما ننقله هنا عن الصحف العربية، "ويرى فلان أنه من الأفضل... وذلك لوضع الأمور بشكل تشريعي... وأنه لا بد.... مشيراً إلى"، والصواب هو "وأشار"، ومثل ذلك "إنه يراهن... لأن...موضحاً".

وكلها عبارات سهلة في الترجمة لأن بعضها ترجمة لخيال أجنبي، وبعضها الآخر نقل لتركيب لغوي إلى العربية من الفرنسية. لو سألت متكلماً عربياً قديماً لقال:

"**بِقهر من سوء الحال**"

أما الظروف الاقتصادية والضغط فكله مستورد من الخيال الأجنبي ومثله كثير في اللغة الصحفية بأنواعها. كـ"لاحقاً" التي هي ترجمة حرفية للكلمة الفرنسية "ultérieurement"، وترك للعادة العربية "من بعد أو بعد"، ومنه أيضاً "سابقاً" التي هي ترجمة حرفية للفظ الأجنبي "antérieurement". ومنه ما شاع حتى

(١) قد يقال إن الكاتب جعل للجثة أو الجسم خصائص المعنى بطريق استعاري. وكل الحالات السابقة يمكن ردها إلى العامل البلاغي وتصحيحها به، وادعاء أن الكاتب الصحفي يكتب بعربية معاصرة وسطى ويتصرف في الخيال والاعتبارات البلاغية، أو يمكن أن يقال أيضاً إن هذه الانحرافات إنما هي نوع من التطور الذي يصيب اللغة، ويوجهها نحو المستقبل.

نسي أصله مثل "بشكل أو بآخر". من ذلك أيضاً "الشفافية"، و"عبر التصويت في البرلمان".

الشفافية بالمعنى الاصطلاحي لها الآن في باب المالية العامة هو الإظهار أو العلانية أو ما شابه، إذ كان الاستشفاف والشفوف خاصاً بالمعاني المادية في العربية الفصحى. شف يشف فهو شافّ، أي يُرى ما وراءه، ومنه المصدر الشفوف. هل كان القدماء يجهلون معنى الشفافية؟ لا، فالشفوف والاستشفاف من لغتهم، والعربية المعاصرة الصحفية لا تستغرق كل المعاني المذكورة لفعل الشفوف في العربية الفصحى. لكن الملاحظ أن الشفافية ليست من اجتهاد العربي، ولكنها مجرد ترجمة لسببين:

- الأول أن الشفافية في عربية الصحافة، منعزلة عن اشتقاقاتها أي أخواتها الاشتقاقية الموجودة في العربية الفصحى، أي أنها غير مولدة، والسبب أنها مترجمة وحدها، والحال أنها في الفرنسية مثلاً اسمها transparence، ولكنها فيها متصلة بفعل مولد هو transparency.
- والثاني أن الشفافية بالمعنى الاصطلاحي الذي وجهت إليه بالترجمة ليس هو معناها في العربية. معناها في العربية هو كل جسم يظهر ما وراءه فهو شافّ لما وراءه أو شفاف بصيغة المبالغة. أما معناها الاصطلاحي فهو حالة المؤسسة أو الإدارة التي تكشف حساباتها للمستطلعين. هذا المعنى الثاني الاصطلاحي أقرب إليه لفظ الكشف والإظهار والإسفار.

يظهر أن المترجم الأول الذي أدخل هذه الكلمة إلى اللغة العربية الصحفية غاب عنه هذا الأمر، فلجأ إلى استعارة الشفوف للإسفار والإظهار والإبانة والكشف وألفاظ أخرى. وإنما صنع المترجم الأول هذه الاستعارة لأنه كان يريد

ترجمة حرفية . واللفظ الأجنبي فيه سابق صيغي يدل على العبور ومعنى اللفظ الحرفي "الظهور من خلال"، فكان الشفوف يفيد ذلك وينقل خيال اللغة الأجنبية. والحال أن الترجمة لا ينبغي أن تنقل خيال النصوص الأصلية، وإنما ينبغي أن تنقل النصوص الأصلية إلى خيال اللغة المترجم إليها.

- **الالتباس الدلالي المنطقي**

هناك حالات تكون الترجمة عن اللغة الأجنبية موردة على العربية عناصر فاقدة للمنطقية. من ذلك قولهم في الصحافة بأنواعها في كل الدول العربية:

"**التصريحات غير المسؤولة أو المواقف غير المسؤولة**"

الالتباس المنطقي في العبارة أتى من لفظ السؤال الذي تحول إلى معنى الرشد. السفيه هو غير الرشيد عبارة تنزاح إلى غير المسؤول! يشبه هذا المثال مثال آخر هو استعمال التفعيل عوضاً عن التفعل في مثل:

"**حرمان كل أعضاء الحزب الفلاني من الترشيح**"

والمقصود الترشح أو ترشيح نفسه. ومن ذلك أيضاً ترجمة الفرنسية "contre" ومثيلتها الإنجليزية في مثل قول الصحافة العربية:

"**التظاهر ضد الحملة القمعية**"

والصواب "ضداً على". ومنه أيضاً تقديم "شتى ": تقليداً للعبارة الفرنسية والإنجليزية في مثل:

"**في شتى مجالات الحياة**"

والمصيبة العظمى في قولهم "مزرعة دواجن"، عوضاً عن "مدجنة" أو ما في معناها.

بجانب هذا المثال أمثلة أخرى تنتمي إلى باب الانحرافات المنطقية، وتستعملها الصحافة المصرية المكتوبة والمرئية والمسموعة عن المرشح المحتمل لرئاسة الجمهورية. هو ليس محتملاً ولكنه محتمل ترشحه[1].

وأشد إبانة للأمر من كل ما تقدم، كلمة التنمية التي جعلت عوضاً في العربية الصحفية عن développement. فـ"التنمية" تنقل الخيال الاقتصادي وتفقد العربية منطقيتها الدلالية، إذ ترى في كل إنتاج إضافة تنم ي وتكبر وتعظم البلد المنمى، لكنها في العربية شيء زائد لا حاجة إليه؛ لأن في العربية لفظ التطوير الذي ينقل خيالاً أدق وأفضل.

- **الاستخفاف بالعربية**

هناك سبب آخر متصل بالترجمة عن اللغة الأجنبية هو الاستخفاف باللغة بخلاف الصحافة الأجنبية. في عربية الصحافة نجد كلمة "رصيد" عوضاً عن solde. ونجد جمعه "أرصدة". هذا يدخل في باب الاستسهال اللغوي. لأن الصحفي العربي لا يكلف نفسه عناء مراجعة أصول اللغة ومعجماتها كما يفعل الصحفي الفرنسي مع الفرنسية والإنجليزي مع الإنجليزية والإسباني مع الإسبانية. لو فعل لوجد "الحسب" ولاستغنى عن اختراع كلمة الرصيد أو عن اتباع من اخترعها لنقل الخيال الأجنبي وما فيه من قضاء على الهوية الدلالية والمنطقية للعربية الفصحى. أضف إلى ذلك أن فعيل في رصيد بمعنى مفعول، فالرصيد صفة وهو المرصود، وفعيل إن كان صفة لا يجمع على أفعلة. وجمع هذا الوزن

(١) إن شئنا أن نعلل هذا الانحراف بلاغياً– أن المرشح شبه بالترشح وأضيف إليه شيء من لوازمه وهو الاحتمال. هذا إذا شئنا تبرئة اللغة الوسطى الصحفية من الانحراف والغلط اللغوي. ويبدو أن ذلك واجب، فإن الممارسة اللغوية تخضع تاريخياً لاختلاف الخيال والأسس البلاغية باختلاف الظروف والأحوال.

سماعي فوحيد تجمع على وحدان وبعير على بعران وقتيل على قتلى وجميل على جمل ككتب، لكن المؤكد أن فعيل المشتقة لا تجمع على أفعلة.

ويمكن أن نضيف أمثلة أخرى في هذا السياق كـ:

- "**يتحسبون**"،
- "**يلتفون على الشيء**"،
- "**الحزمة**"،
- "**الفروة**"،
- "**تفعيل القانون**".

الأولى المقصود بها "يستعدون، يحتاطون" وغيرهما. وأما الثانية فاخترعها من يجهل "يتجنبون، يتفادون" وغيرهما، وأما الثالثة فاخترعها من يجهل أن في العربية لفظ الزمرة وما شابهها في المعنى، وأما الرابعة فاستعملها في معنى جلدة الرأس البشري وشعره والمقصود في العربية هو الجمة، وأما الخامسة فليست إلا ترجمة لقولهم في الفرنسية " mis en oeuvre" وهي ترجمة لخيال ومعنى ومنطق لا حاجة إليه في العربية؛ لأن في هذه اللغة كثيراً من الألفاظ التي تدل على المعنى الفرنسي ولا تدخل عليها الغموض واللامنطقية البارز حين نفكر في معنى التفعيل بمعنى التحويل إلى فعل بالمعنى النحوي أو بمعنى صيغة التفعيل في مقابل التفعل.

مثال آخر هو الاستمزاج الذي نقل من معناه المنطقي الذي هو طلب المزج، إلى الاستطلاع والاطلاع والإطلال والاكتشاف والمعرفة، والغالب أنه ترجمة رديئة لكلمة أجنبية وهي الفعل الفرنسي prospecter. لا علاقة بين جذر المزج

والاطلاع، ولا رابط يربط اللفظ بالمعنى في تلك التسمية الشائعة في اللغة الإعلامية.

والالتفاف ترجمة لفعل " contourner" بالخيال الملتصق به، والتحسب ترجمة للتركيب الفرنسي " rendre compte"، وله مثيل في اللغات الأوروبية الأخرى، والباقي ترجمة بغير تعقل لأن فيه طرداً لألفاظ عربية تدل على تلك المعاني بخيال عربي أصيل، وغير مخرب ولا محرف للعلاقات الدلالية البلاغية بين ألفاظ العربية.

2-3-2 الثنائية اللغوية وعربية الإعلام

إن قيام الدوارج بجنب العربية الصحفية يجعلها في وضع ثنائي "diglossie". هذا الوضع يفرض على اللغات الواقعة في حدوده، ردود فعل متناقضة. فمن جهة تطرد اللغة المكتوبة من معجمها كل كلمة شديدة الانتماء إلى اللغة الشفوية أو اللغة الأخرى القريبة.

ومن جهة أخرى تخضع اللغة المكتوبة إلى شروط الفهم المشاعة بينها وبين اللغة القريبة. الدارجة العربية هي لغة قريبة من العربية الفصحى والعربية المعاصرة الصحفية. يلاحظ مثلاً أن كلمة "ناض، ينوض" بمعنى نهض تنتمي إلى الدارجة المغربية العربية، ولذلك فإنها تطرد من العربية الصحفية والفصحى في المغرب، بالرغم من أنها كلمة عربية صميمة، ولكنها قد لا تطرد من العربية المعاصرة بقلم كاتب مشرقي لأنها عنده كلمة قحة من العربية، ولأنها ليست جزءاً من دارجته.

من جهة أخرى فإن اللغة المكتوبة كالعربية الصحفية لا تستطيع أن تخرج عن العالم المفاهيمي الدلالي للدارجة، ولا تستطيع أن تجاوز المشاع بينهما عند

العجز عن الطرد. دليل ذلك أن المستعمل من المعجم العربي في العربية الصحفية لا يكاد يجاوز 10 في المائة في أحسن الأحوال من المعجم العربي المنتمي إلى العربية الفصحى. والسبب في ذلك أن الكاتب بالعربية الصحفية يعنيه بالدرجة الأولى فهم القارئ، والقارئ غاطس إلى أذنيه في الدارجة العربية، فلذلك ترى الصحفي لا يختار إلا الكلمات التي لها أعظم شيوع، وهي الألفاظ العربية القائمة في الدارجة العربية، بل إنه يعرّب التراكيب الدارجية أحياناً جهلاً بالصواب أو تقرباً من الدارجة طلباً للوضوح. مثال ذلك قول الصحفيين:

- "**لوحده**"
- "**يتلطخ**" **عوضاً عن** "**يتضرج**"

بحيث ينقلب المعنى انقلاباً كلياً في مثل:

"**ومحاسبة كل من تلطخت يده بدماء شبابنا**"

كاتب هذه العبارة من الصحفيين لا يعلم أنه بعبارته يذم الشباب ويذم دماءهم لأن ما يلطخ اليد هو الأوساخ. ومنه أيضاً "أبو مازن" التي ينقلونها إلى العربية بالصورة الثابتة التي لا تتغير بأحوال الإعراب. وكذلك في نقل التركيب الدارجى "كلية" في مثل:

"**والغوص كلية في قضايا الأمة**"

ومنه أيضاً استعمال:

- "**أية دولة متقدمة**"
- "**باقي المدن السورية**"
- "**حيث**" **في مكان** "**إذ**"، **والعكس،**
- **الأعقاب جمعاً للظرف** "**عقب**"
- "**ليس**" **في مكان** "**لا**"
- "**يلزم**" **في مكان** "**يجب**"

وكل ذلك في الأمثلة التالية المنقولة عن أرقى الصحف والإذاعات والمحطات المرئية: "في أعقاب الثورة المصرية"، والعقب لا يصح أن يكون جمعاً للظرف "عقب". المثال الآخر: "على كل عضو وليس كل الأعضاء"، و"يلزم رفضها" و"لا جدوى من هذه الطعون.. حيث إن أحكام القضاء"، و"في شتى مجالات الحياة" وهلم جرا.

ومن ذلك أيضاً إخضاع العربية الفصحى لأصول تركيب الدارجة العربية الشرقية في مثل:

"**مع هكذا ظروف**"

نلاحظ أن هناك طرد اً للكلمات الدارجة الصرف التي لها مقابل مشهور في الناس ووجه صالح ومتقبل في العربية، والتشبث بالكلمات المشاعة بين العربية الصحفية والعربية الدارجة.

ويمكن أن نذكر أيضاً في هذا السياق كلمة جثمان وجمعها الصحفي على جثامين. لا وجود للجثامين في أي نص عربي قديم أو من أوائل وأواسط القرن العشرين. كل ما في الأمر أن مخترعي هذا الجمع لا يعرفون أن جثة الميت تدعى في العربية بالجنازة وجمعها جنازات. لقد اتجه ظنهم تأثراً بالدارجة إلى أن الجنازة هي الاحتفال الذي يقام لتوديع الهالك، فبحثوا عن الجثمان والجثامين، وغاب عنهم أن الجنازة في العربية هي جثة الميت نفسها، أي ما يدعونه بالجثمان الذي ليس إلا مصدراً من جثم يجثم، والإشارة به إلى غياب الحركة لا إلى الجثة الميتة نفسها التي اسمها الجنازة. مثل هذا يقال عن الفَعَال بفتح الفاء والعين، الذي هو الكرم والجود.

سأعرض لبعض الأمثلة الدالة في هذا السياق:

الأول "مجاناً وهو من المجون أي هو صيغة فعال من ماجن. وعليه فمعنى "أعطيته مجاناً" هو أنني أعطيته وأنا في حال مجون، ثم نقلها الجاهل الأول باللفظ المناسب إلى "أعطيته بغير مقابل منه". والحقيقة أن الكلمة المناسبة هي:

أعطيته دون مقابل

فلما جهل ذلك اخترعت كلمة "مجان"، وألقاها على المعنى وفرضها بوسائل الإعلام العربية.

وكذلك قولهم "**جلسنا سوياً**" عوضاً عن "جلسنا كلانا أو أجمعين". لا يصح أن يعد ذلك التعبير من باب نائب المفعول المطلق أي بمعنى "جلسنا جلوساً سوياً"، فذلك ليس مقصوداً لمن يقصد أنه جالس واحداً أو جماعة. الحاصل أن السوي والسواء بمعناه يضيع وتصبح العربية مستعملة للفظ ذي معنى في مكان آخر.

الدارجة العربية طيلة تاريخها الطويل كانت تقتبس من العربية اللغة الغنية بالمعاني، شأنها في ذلك شأن كل اللهجات الأخرى المقتبسة منها من الأمازيغية في الغرب العربي، إلى لهجات الشرق العربي. كانت كل اللهجات الدارجة المرتبطة بالعربية تقتبس منها وما زالت تقتبس، ولكنها في معمعة التفاعل بين اللغات واللهجات صار لها دور كما قدمنا في وضع حدود العربية الصحفية المستعملة.

إذن اللغة العربية الصحفية في أيامنا هذه فقيرة، وهي لذلك غير واضحة ولا منطقية، بل إنها أحياناً تصل إلى قمة التناقض. مثال ذلك:

"**ما زالت القضية الفلسطينية تراوح مكانها**"

يقصد الصحفي أنها تلازم مكانها، ولكنه في اللغة الغامضة يمضى إلى فعل لا صلة له بالملازمة والثبوت المكاني، إلى فعل معناه يدل على نقيض الملازمة. أضف إلى ذلك في اللامنطقية العبارة المشهورة التي ألقاها سياسي مصري:

"**قرر فلان تخليه عن منصب رئاسة الجمهورية**"

فهل قرر التخلي مطلقاً أم هل قرر نوعاً من التخلي؟ لو قرر تخليه كما جاء في التصريح لما كان مقرراً مطلق التخلي، والحال أن السياسي المصرح بهذا يقصد التخلي المطلق لا تخلياً مقيداً.

- **إغفال الأوضاع اللغوية**

إغفال الأوضاع النحوية والصرفية أيضاً، ويكفي أن نشير إلى صيغة "إما يفعلن فافعل" كقوله تعالى "فإما ترين من البشر أحداً فقولي..". وإلى الخلط بين **إن** و**إذا** في التعابير الصحفية، وإلى إمحاء ما يجزم فعلين فيها، وإلى مثل استعمال ليس في مكان لا العاطفة كقول الصحفيين من الخليج إلى المحيط "**يفعل هذا وليس هذا**" عوضاً عن "يفعل هذا لا هذا"، وإلى مثل قول الصحفيين:

"**اعتقالات عشوائية أو قصف عشوائي**"

وهم في ذلك ينسون أن الصواب هو "قصف عَشائي واعتقال عَشائي" بفتح العين من عشا يعشو عَشاء كغدا يغدو غَدواً وغَداء، وينسون أن عشواء مؤنث أعشى وهي مجاز في العمياء حقيقة في الذي لا يرى إلا الظلام، ومنه عشا يعشو إذا مشى في الظلام.

ولا ننسى ههنا الجموع التي تتجنب في العربية الصحفية لأنها سماعية وكثيرة أو تعوض بجمع المذكر والمؤنث السالمين. أي الصحفيين يعلم جمع جميل أو

بديع؟ وراكب ومالك وساكن وملك؟ ليس فيهم من يراجع المعاجم ليعلم أنه السكن والركب والركوب والملوك وأن الملك جمعه أملاك لا ملوك. وأيهم يستطيع أن يقيس أسماء المرة والهيئة وأن يستحضر أبنية المصادر وأحكام المقصور والممدود؟ القليل. وصيغة التعجب ألم تعوض في اللغة الصحفية بصيغة التكثير وعوضاً عن أن يقول الصحفي:

"**ما أعمل هذه الحكومة للصالح العام**"

تراه يقول: "كم تعمل هذه الحكومة للصالح العام".

أجل نحن لا ننكر أن نحو العربية وصرفها يحتاجان إلى إصلاح، لأن كثرة الأحوال السماعية تقف عائقاً في وجه الصحفي، حتى وإن حفظها فلا يستطيع أن يقيس عليها. انظر مثلاً إلى "نجلاء" في "طعنة نجلاء أو قولة نجلاء"، فإنك لا تستطيع أن تقيس عليها: "كتباء أو خرجاء" فلا تقول: "امرأة خرجاء" إن كانت كثيرة الخروج، ولا تقول: "فلان ذو يد كتباء".

إن إصلاح العربية يقضي بتحويل هذه الصيغ إلى صيغ قياسية حتى يسهل على الصحفي حينئذ إغناء لغته وصياغاته. لا معنى لأن يشتق من الحسن حسناء وأن لا يشتق من القبح قبحاء، والحال أن قبحاء لم تسمع وحسناء لا يقاس عليها. ولا معنى لأن نسمع سكران في العربية ونحرم قياس ضحكان وسمعان عليها. هذا كله ينفر الصحفي ويدفعه دفعاً إلى الوقوع في التأثر الضرور ي بالدارجة واللغة الأجنبية.

وجماع القول إن عامل اللغة الأجنبية وخيالها والدوارج وآثارها، والاستخفاف اللغوي عند الصحفيين، وكذا شيوع فكرة الوقوف عند المستويات الفكرية للقراء، تمثل شبكة من العوائق التي تقف حاجزاً بين العربية السليمة ووسائل الاتصال. فلا

بد من هذا المنطلق من إصلاح العقليات السائدة والمُسيِّرة لوسائل الإعلام، ولا بد من تعليم الصحفيين في وسائل الإعلام برمتها، عقيدة احترام العربية كما يحترم الصحفي الإنجليزي أو الفرنسي الإنجليزية والفرنسية، بالعكوف الدائم على مراجعة نحوها ومعجمها ونطقها.

3- عوامل ضعف عربية الإعلام

إن أهم العوامل التي تضعف المراقبة والتوجيه للغة الإعلام ترجع إلى:

- الوضع اللغوي العام في المجتمع:

أما العامل الأول فيجب أن نعترف بأن العربية لم تحتل بعد موقع اللغة الأم بالرغم من أننا نتمنى ذلك. فالعربية لا نجدها في بدء حياتنا إلا في المدرسة أو الكتاب. نتعلمها حروفاً وكلمات وجملاً كشيء لم يولد معنا ويختلف عن الكلمات والعبارات التي نعيش بها في البيت والحي. العربية نتعلمها سنوات دون أن نتمكن من توظيفها في شؤوننا العادية. إنها مهارة نتدرب عليها وحين نريد تطويعها نقوم بعملية ترجمة؛ نفكر بالدارجة أو غيرها ونحاول أن نكون أوفياء لما يدور في خلدنا؛ هذه العملية قد تظل قائمة باستمرار ولا تضعف إلا لدى من تيسرت له أسباب الإتقان والدربة.

ومن ثم فإن اللغة الأم، لغة الشارع، لغة التفاصيل اليومية البسيطة تضغط على العربية كتابة وكلاماً، وأحيانا تتسرب الدارجة إلى العربية استجابة للسياق أو طمعاً في الحفاظ على الدلالات الثقافية، وخصوصيات الموضوعات ومقتضيات الإبداع أيضاً. إضافة إلى هذا فإن الوعي السائد في المجتمع يصل أحياناً إلى درجة الطعن في العربية ومنازعتها. وهذه قضية كثيراً ما تصبح مطية لمزاعم وصراعات إيديولوجية.

- **سياق تعلم العربية في المدرسة والمجتمع:**

ما تعرفه العربية في المدرسة والجامعة شيء معروف، أقل ما يقال عنه إن سياسة تعليمية ملتبسة تضيق على تعليم العربية وتربكه فتحول دون بلوغها ما تستحق كلغة رسمية. ويكفي أن نشير هنا إلى السياسة المنهجية التي تعرقل تعريب مواد علمية كثيرة، بما في ذلك فروع من علوم الاتصال والصحافة والتقنيات، وتشجع اللغات الأجنبية؛ تعزيزاً لعدم تعريب الحياة في الإدارة والاقتصاد. وأمام هذا العامل، والذي سبقه كذلك يأتي الصحافي من مكان لم يتيسر له فيه سبل الإتقان ولا الأفق الذي يسحبه إليه. يأتي من مدرسة وجامعة تتسم بيداغوجية واستراتيجية متعثرتين ناقصتين وغامضتين فيما يخص شروط تعلم لغة الضاد.

- **وضع اللغات الأخرى، في علاقتها بالعربية داخل المجتمع:**

لا ننكر أن علاقة العربية باللغات الأجنبية ستساهم دون شك في صنع مستويات من اللحن عند الترجمة والاقتراض، مما يصيب العربية أسلوبياً ومعجمياً. إلا أن العلاقة في الواقع العربي الآن أكثر تعقيداً، فهي ليست علاقة تجاور أو تثاقف، بل علاقة مزاحمة وضغط بسبب العاملين السابقين، بحيث تدفع الصحافة المعربة إلى القيام برد فعل استجابة لسرعة الحياة والعمل، ومواكبة للواقع المتغير وللصحافة الأخرى مما يدفع إلى اقتراف المزيد من اللحن واستعارة جوانب تقنية وتعبيرية أبعد من اللحن نفسه، مثل اقتراض جمل وألفاظ باللغة الأجنبية نفسها.

- **إمكانات العربية وصلتها بمستجدات العصر:**

إن إمكانات العربية واسعة ولها قدرة توليدية كبيرة، ومع ذلك فإن التهمة التي تلفق بها تقنع المتكلم بالعربية بأنها لغة صعبة وقاصرة عن مواكبة العصر؛ وبالطبع فإن قصور لغة ما هو قصور أهلها. وهنا "أظن" أن العربية التي تنعت

بالصعوبة والتعقيد أكثر تعقيداً وصعوبة من الفرنسية والألمانية واليابانية. وإنه لمضحك أن يدعي شخص ما أن جر الفاعل أو نصبه أو منع كلمة من الصرف، وصرف ما يمتنع عن الصرف سبب تخلف العربية وقصورها، أو سبب كاف دال على تقدمها من وجهة نظر معكوسة، فالذي يجعل العربية في وضعية توصف فيها كذلك هو مجتمعها. وعلينا أن نعرف أن إمكانات العربية التوليدية سبب قوة كامنة لا نحسن توظيفها. وإن اللغات لا تقتحم مواقع لغات أخرى إلا لوجود نقص في اللغات المقتحمة ووجود كسل واستخفاف المتكلمين والمعنيين بها في مختلف جوانب الحياة المادية والعلمية.

- **خصوصيات العمل الصحفي ومستلزماته اللغوية والتقنية:**

إذا كان العامل الرابع يتعلق بكسل واستخفاف البحث اللغوي وضعف مقاومة اللحن اللغوي أساساً، فإن العامل الخامس يتبدى لنا من خلال انعكاس آثار العوامل السابقة. بمعنى أننا حين ننظر إلى الصحافة، لا نراها صحفاً من ورق فقط ولكن أيضاً مؤسسة قائمة الذات. فكل صحيفة مؤسسة يجب أن تسأل عن أي عربية ستوظفها؟ إذ من المفروض أن تكون هي بدورها جواباً عن سؤال ضمني، أي صحافة هي؟ وفي ضوء السؤالين معاً قد نفهم علل اللحن السائد في هذه الصحيفة أو تلك. وما أظن أن مبررات صحافة الرياضة أو صحافة الاقتصاد أو صحافة "الموضة" أو صحافة التقنيات وصحافة التشهير والسخرية لها مبررات واحدة ودوافع متطابقة ومتطلبات متشابهة تقنياً ولغوياً.

هذا لا يعني أننا نبرر التشويه ونسوغه لأن أي تبرير خاطئ سيكون تزكية للكسل والقصور. ومعلوم أن من شروط القيام بمهنة ما هو إتقانها، وإتقان مهنة ينهض على قواعد وقوانين وإمكانات مادية. ونشر لغة تتصف بالضعف والركاكة

أمر مخالف لشروط المهنة، كمهنة الصحافة. كما أن نشر عربية مشوهة حرب على العربية لا تقل خطورة عن ترويج السموم والجراثيم.

وهنا لا بد من التنبيه إلى أمرين أساسيين:

أولهما ضعف الرقابة الإعلامية فيما يخص اللغة. فأكثر مؤسسات الإعلام بالعربية لا توظف خبيراً لغوياً وكأن مهارة الكاتب الصحفي أو المسؤول الإعلامي هي مرجعية اللغة نفسها. صحيح أن الحرية هي مجال الصحافة، لكن الرقابة اللغوية أمر مطلوب لضمان الحرية نفسها؛ لا لأنها رقابة بمعنى سياسي وقمعي، بل هي رقابة توجيه ودعم وتصحيح، حتى لا تكون الحرية عبثاً وتسيباً وتخريباً للغة الوطنية والقومية.

ثانيهما تعثر التواصل بين مؤسسات البحث اللغوي والمؤسسات الصحفية؛ وهو تعثر نتج عنه الجهل بكثير من الاجتهادات التي قامت بها المجامع والمؤسسات الأكاديمية مثل المجمع المصري والسوري، ومعهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالمملكة المغربية، وهو كسل مشترك حدث لعدم وجود ضوابط الاتصال مادياً وقانونياً.

وبعد هذا كله يبقى من اللازم تأكيد أن حل المشاكل المطروحة على عربية الصحافة لا يمر بصورة مرضية بدون الحسم في العوامل المذكورة أعلاه، أي لا بد من وجود قرار سياسي واضح في التعليم والإعلام والثقافة بدءاً من الموقف بخصوص اللغة العربية بوصفها لغة وظيفية ولغة تداول.